المبحث الثاني:
المعركة الدائرة في تركيا..

تركيا التي نراها اليوم مساحتها أقل من مليون كم، ولكنها تعبر عن الموجة الكبري الثانية من الفتح الإسلامي الذي قاده العثمانيون استكمالاً لجهود السلاجقة الأتراك في بداية القرن الثالث عشر الميلادي، ومدينة اسطنبول الضخمة التي تتوزع بين قارتي آسيا وأووربا، ويشرف عليها في الجانب الأوروبي المسجد السليماني الضخم، كما يبدو في الأفق القصر الضخم الذي حكم العثمانيون منه العالم والمعروف " بطوب قابو "، وبها مسجد محمد الفاتح ومسجد الصحابي الجليل " أبو أيوب الأنصاري " وقبره، والسور القديم الضخم للقسطنطينية (مركز العالم الأرثوذكسي الامبراطوري " قبل أن تصبح " إسلام بول " أي مدينة الإسلام - ومسجد آيا صوفيا الذي كان كنيسة ولا يزال في غالبه متحفاً حتي اليوم بضغوط غربية، لم يستطع " أتاتورك " تحمل العبق الإسلامي القوي في المدينة، فهرب إلي أنقره التي يشعر زائرها بالضيق فليس بها سوي بعض التماثيل ومؤسسات الحكم العلمانية التي أقامها " أتاتورك ".

تعبير ترك وأتراك وتركيا، لم يكن معروفا أيام الدولة العثمانية، حيث لم يكن هناك انتماء للقومية والعرق، وإنما الانتماء للدولة العثمانية باعتبارها جامعة لشعوب متعددة تحترم الإسلام ونظامه وتدين بالولاء للسلطان والخليفة والخلافة باعتبارها رمز الإسلام وعنوانه، فالتركي كان تعبيراً عن عدم التحضر في السلوك، ولم تصعد تعبيرات الترك هذه إلا مع انهيار حكم الدولة العثمانية وسقوط السلطان عبد الحميد سنة 1908 م، وهو العصر الذي بدأ بحكم الاتحاد والترقي وانتهي بقمة جبل الجليد

متمثلا في كمال أتاتورك 1923 م وهو العام الذي تأسس فيه حزب الشعب الجمهوري الذي ظل يحكم تركيا منفردا حتي عام 1946 م.

تعرضت تركيا للاحتلال الكامل من دول الحلفاء بعد نهاية الحرب العالمية الأولي، واحتل اليونانيون الأعداء التقليديون للعثمانيين والإسلام وتركيا منطقة أزمير، ودخلوا عاصمة الخلافة الإسلامية في مشهد حزين أعاد للأذهان دخول التتار لعاصمة الخلافة العباسية بغداد في 1258 م، وكانت هناك حرب للتحرير هي التي بزغ فيها نجم " أتاتورك " الذي كان ياوران للسلطان والذي بدأ المقاومة بتحريض منه وبأموال دفعها له، ولكنه تمرد عليه.

اتفاقية لوزان 1923 والتي منحت تركيا الاستقلال اليوم هي معاهدة دولية كان ضمن بنودها إسقاط الخلافة العثمانية وهي رغم ضعفها من بعد السلطان عبد الحميد ولكنها كانت رمزاً يسعي مشعلو حرب " المسألة الشرقية " إلي إنهائها بإعلان إسقاط الخلافة وقام أتاتورك بذلك وكوفئ بتتويجه وكيلا للحضارة الغربية علي جسد تركيا التي كانت قلب دار الإسلام.

علمنة تركيا:

العلمنة تسللت إلي أفكار المثقفين في العالم الإسلامي من خلال التأثر بالثورة الفرنسية، والثقافة الفرنسية هي التي كانت سائدة في الدولة العثمانية وفي حواضر ا لإسلام الكبيرة كمصر، وظهر هذا الاتجاه بقوة داخل مؤسسة الخلافة ذاتها، معتقداً أن الهزيمة أمام الغرب حلها يكون باتباع قيمه والتزام حضارته واتباع سننه، وجاء " أتاتورك " ليعبر عن

هذا الاتجاه ليس كتيار فكري وإنما كحاكم يمسك بالسلطة والثروة وبإرادة نافذة لا يمكن مقاومتها أو الاعتراض عليها، وهناك دراسات عديدة تتحدث عن الأمراض النفسية التي كان يعاني منها " أتاتورك " - وهذا ليس اسمه الحقيقي، فاسمه مصطفي كمال - ولكن جنونه دفعه لتغيير كل الأسماء القديمة واختيار أسماء جديدة للأتراك - ومعناه أبو الأتراك، فهو كان يعتقد أنه الباعث الحقيقي لنهضة تركيا وتقدمها، ومن سافر لتركيا يلاحظ أن جميع تماثيل أتاتورك تشير إلي الغرب، أي أن الغرب هو الوجهة التي علي تركيا أن تتجه إليها.

ظل نص " الدين الرسمي هو الدين الإسلامي لتركيا " حتي قبل وفاة " أتاتورك " بعام أي حتي عام 1937 م، وكان آخر تعديل في الدستور التركي الذي عرف حوالي 10 تعديلات، وأثبت في المادة الثانية من الدستور التركي أن " تركيا دولة علمانية " واعتبر نصا لا يمكن تغييره، وكل تعديلات الدستور التركي كانت في اتجاه حذف كل ما له صلة بالإسلام من آثار العثمانيين من أول ما تبقي من الشريعة - الأحوال الشخصية وحتي القيافة أي الأزياء - ما يرتديه الرجال والنساء، وصارت تركيا في كل أوضاعها المؤسسية والدستورية والقانونية علمانية لا مكان للدين الإسلامي فيها مطلقاً، ومثل ذلك كارثة كبيرة لكل العلماء والمثقفين والمدرسين والخطباء والوعاظ والقادة الذين اعتبروا الإسلام والخلافة جزءًا مهما من وجودهم وحياتهم، فضاقت بهم تركيا الجديدة وهاجروا منها في أفواج، تشير المعلومات إلي أن من هاجر إلي مصر وحدها بلغ أكثر من مائة من العلماء والوجهاء والمثقفين وأكابر القوم وكان علي رأسهم العلامة شيخ الإسلام " مصطفي صبري "، والشاعر العظيم " محمد عاكف أرصوي " الذي

ألف نشيد الاستقلال لتركيا والذي لايزال جزءاً من ثوابتها إلي اليوم، وهو يمثل أحد رواد الحركة الإسلامية في تركيا.

في فترة حكم " أتاتورك " المرعبة التي تشابه حكم ستالين " في الاتحاد السوفيتي الغابر، تعرض الكثير من العلماء للموت شنقاً، وأنا أسير مع أحد الأصدقاء حول مسجد الفاتح في حيه باسطنبول، أشار لي مرافقي إلي المواطن التي كانت تعلق فيها جثث العلماء المعارضين لهذا الطاغية، وظل حزب الشعب يحكم وحده ويرأسه " أتاتورك "، ولم يتحمل المعارضة الملكية حين جاء بصديق له اسمه " فتحي أوقيار " وجعله يؤسس حزبا اسمه " الحزب الجمهوري الحر " ودخله معارضو " أتاتورك " ومزقوا صوره وداسوها بالأقدام، ولم يتحمل فأغلقه، وجاء عصمت إينونو " من بعده وكان أكثر وحشية وعلمانية، وأدرك أنه لم يعد ممكنا لتركيا أن تظل بدون تعددية حزبية، فقبل تأسيس مجموعة من المعارضين لحزب الشعب لحزب جديد سموه " الحزب الديموقراطي " ودخل الحزب الانتخابات البرلمانية علي عجل وحقق نتائج مبهرة (حصل علي 46 مقعدا)، وفي الدورة التالية عام 1950 اكتسح البرلمان وشكل الحكومة وتحول حزب الشعب إلي المعارضة، وبدأ الإحياء الإسلامي الأول في تركيا، فأعيد الآذان بالعربية وبدأ القرآن يبث من الإذاعة وبدأت دورات تعليم الدين في الجيش، وافتتحت كلية الإلهيات ومدارس الأئمة والخطباء وهكذا بدأ استعادة الإسلام لمكانته ودوره في الحياة.

الإسلام المنتصر:

مهندس النظام التركي أقامه علي الجيش والنظام الحزبي، والنظام الحزبي يقبل بأحزاب الوسط في ا ليمين واليسار، والأحزاب الكبيرة هي المسيطرة والصغيرة لا مكان لها، ولم يكن للإسلاميين مكان في هذه

اللعبة، ولكن بعد عام 1960 والانقلاب الأول لم تعرف السياسة استقراراً وكان هناك أجنحة للإسلاميين في الأحزاب، ولكنه في نهاية عام 1969 تأسست أول لبنة في الحركة الإسلامية المعاصرة في تركيا، وتأسس لها حزب مستقل هو حزب النظام الوطني الذي سرعان ما أغلق مع انقلاب 1970 ثم جاء حزب السلامة الوطني الذي دخل في عدد من الائتلافات مع حزب الشعب وحزب العدالة، ولكنه أغلق مع انقلاب 1980 ثم تأسس الرفاه في عام 1983 م، واكتسح الانتخابات المحلية حيث أدي ممثلوه أداء متميزا ونزيها وكان منهم " طيب أردوغان " الذي كان عمدة لاسطنبول، ثم اكتسح الانتخابات ا لبرلمانية عام 1995 وشكل حكومة ائتلافية في عام 1996 تولي رئاستها " أربكان " أبو الإحياء الإسلامي المعاصر في تركيا، ولكنه لم يكمل العام وتم الانقلاب عليه من الجيش فيما عرف باسم " انقلاب ما بعد الحداثة " أو الانقلاب اللطيف "، وخرج من الحكومة ثم تأسس حزب الفضيلة وأغلق من المحكمة الدستورية التي كانت كل مرة تغلق هذه الأحزاب بدعوي تحديها للعلمانية وانتهاك مبادئها، ثم جاء للحكم حزب العدالة والتنمية للسلطة في نوفمبر عام 2002 م مكتسحاً الحياة السياسية وطرد منها الأحزاب الكبيرة التي تربعت علي عرش السياسة التركية منذ الثمانينيات، وأصبح له الأغلبية في البرلمان التركي (373) نائبا أصبحوا 357، وجاء " طيب أردوغان " أحد رموز الإسلاميين الأتراك في الثمانينيات، وتبني حزبه ما عرف باسم " الديموقراطية ا لمحافظة "، واستطاع أن يحقق نجاحات مهمة في الاقتصاد ويحقق الاستقرار للسياسة ا لتركية التي فقدت معناها مع الأحزاب العلمانية اليمينية واليسارية معا.

هنا " أردوغان " و " عبد الله غول " وبولنت أرينج " وغيرهم

زوجـــاتهم محجبـــات، والحجـــاب ممنـــوع بحكـــم القـــانون التركـــي، والـديموقراطيون المحـافظون، ذوي الجذور الإسـلامية هـم اليـوم فـي قلـب رئاسـة الـوزراء، وهـم دعـم لا شـك فيـه للعـودة الكبيـرة للإسـلام فـي تركيـا، فهناك قانون اجتماعي ثابت في تركيا وفي غيرها حين يكون هنـاك حكومـة غيـر يسـارية أو ديموقراطيـة محافظـة فـإن الصـعود الإسـلامي يمضـي إلـي وجهته، الإسلام والصحوة الإسلامية تتعاظم في ظل الحكومات التي لا تقمع ولا تأخذ موقف أيـديولوجي مـن الإسـلام، هنـاك انتصـار وصـعود واطمئنـان للإسـلام فـي تركيـا وهـو مـا يفسـر خـروج المظـاهرات المليونيـة فـي أنقـرة وتركيا من جانب العلمانيين، إنهم يقطعون الطريق علـي الصـعود الإسـلامي الذي لا يمكن إيقافه.

تغيير قواعد اللعبة:

المشـهد الـذي نـراه اليـوم، وهـو ترشـيح " غـول " لمنصـب الـرئيس هـو استكمال للأدوات ا لدستورية التي يمكن من خلالها استعادة الدولـة التركيـة من أيدي العلمانيين والقوميين الذين يستلهمون تقاليد أتـاتورك "، وإذا كـان " طورجـوت أوزال " هـو مـن أسـس للجمهوريـة الثانيـة التـي انتقـدت العلمانيـة وطرحتهـا للنقـاش العـام، وهـو مـن أعلـن تمسـكه بالصـلاة علنـا، وبالقيـام بـأداء فريضـةا لحـج ورفـض تصـنيم " أتـاتورك " فـإن مـا يجـري اليـوم مـن تـوتر وصـراع هـو محاولـة اسـتعادة " أردوغـان " والـذين معـه للدولة التركية من الكمالية والعسكر، بحيث يتحـول البرلمـان إلـي مؤسسـة حقيقية تتخذ قراراتها دون تأثير مـن " مجلـس الأمـن القـومي " ودون تـأثر بتهديـد رئاسـة أركـان الجـيش، ومـن يقـول إن الـرئيس منصـبه شـرفي فـي تركيـا فإنـه لا يعـرف قـدر مـا يسـتحوذ عليـه الـرئيس مـن سـلطات دون أيـة مسـئوليات، لـو اسـتطاع الإسـلاميون الـذي يخوضـون ا لمعركـة فـي تركيـا

اليوم أن ينجحوا في محاولاتهم تغيير قواعد اللعبة وتغيير الدستور العلماني وانتخاب الرئيس مباشرة من الشعب فإن هناك آفاقًا ضخمة لتحول حقيقي في المركب التركي العلماني الأتاتوركي الذي يمثل أكبر عقبة في حياة تركيا، وعندها سوف يحقق الإسلام والمسلمون تحولات اجتماعية وسياسية تستعيد لتركيا وجهها المشرق والمعبر عن الإسلام.

* * *